أردتُ فقط أن أكون سعيدة

صدر للكاتبة الإيطالية جينيتا روطوندو، عن دار النشر CSA Editrice، في طبعتها الأولى سنة 2020، مع إعادة إصدار في 2024، روايتها "أردتُ فقط أن أكون سعيدة " . الرواية مستوحاة من قصة واقعية.

تدور أحداث الرواية حول البطلة نعيمة، شابة في مقتبل العمر تبلغ اثنين وعشرين ربيعًا، تعيش في الصومال مع جدتها. اختارت أن تمنح الشرعية لحلمها وتغيّر واقع حياتها وحياة أسرتها، ففكرت في الهجرة إلى إيطاليا. كانت صورة إيطاليا في مخيلتها، كما وصفتها لها ابنة عمّها التي هاجرت إليها، هي المكان الآمن، والوطن الدافئ، وأرض الخيرات والحظوظ.

اختارت أن تغيّر مصيرها هربًا من الجوع والقهر والحروب الطائفية والفقر. كان المسار شائكًا، لكن إرادتها كانت أقوى من كل الصعوبات. باحت بسرّ حلمها لجدتها، فاحتضنته وباعت كل نفيس وغالٍ لتأمين هذا المسار الصعب لها.

ركبت نعيمة حافلة الهجرة مع الكثير من شبّان وشابّات القرية الذين حلموا – وحلمن – بغدٍ أفضل، أكثر إشراقًا وإنصافًا، واتجهوا صوب الهدف. وصلت الحافلة إلى ليبيا، نقطة النار والحديد، نقطة الانطلاق المباشرة نحو الحلم. وهناك صار ما صار؛ إذ استفرَدَت عصابات الهجرة بها وبصديقاتها اللواتي خُضن المسار نفسه. فقتلوا المسيحيات منهن، واستغلّوا المسلمات الجميلات ليتفننوا في تعذيبهن بكل أشكال التعذيب: الاغتصاب، والضرب، والتجويع.

حملت نعيمة في أحشائها بذور مُعذِّبها، في رحمٍ ممزّق من كثرة التعذيب.

شاء القدر أن ترى الوطن الذي ركبت لأجله كل هذه الصعاب؛ إذ نجت من التعذيب وأكملت مسار الهجرة إلى إيطاليا عبر البحر. وصلت إلى كروطوني، وهناك أغلقت رموشها على حلمها حتى يكبر وينطفئ داخلها، وأهدت الحياة ابنتها لتكون شاهدة على قصتها.

"أردتُ فقط أن أكون سعيدة" قصة واقعية تطفح وجعًا وألمًا، وتفتح عيون الإنسانية على خبث الإنسان. قصة تؤرّخ لمسار الهجرة، ولِما يتكبّده كلّ مهاجر وافد اختار أن يغيّر مسار حياته ويبحث عن الأمان والنجاة والحظ، مهاجرًا من جنوب العالم إلى شماله، من نصف الكرة الأرضية المنسيّ والمظلم والتعيس إلى نصفها المشرق السعيد المحظوظ. كل مهاجر وافد لم يجد أمامه خيارًا إلا الهجرة هربًا من الحروب أو من الموت، أو بحثًا عن أمانٍ وحظ أفضل.

تركّز القصة على البطلة، وتروي حكايتها بأسلوب شاعري طافح بالوجع والمساءلة، في حبكة سردية كرونولوجية تنطلق من واقعها في الصومال. تخطّط للهجرة، فتجمع أغراضها البسيطة وأحلامها الكبيرة لمعانقة إيطاليا، بلد الأمان والحلم والجمال، وتركب جناح المغامرة.

كان قرار الهجرة جماعيًا، تدخلت فيه الأسرة ومَوّلته للانطلاق، وذلك بتنسيق مع ابنة عمها المتواجدة في بلد المهجر، التي أعطتها فكرة عن الحياة الرغيدة والآمنة في إيطاليا، وانتظرتها لتَحُطّ الرحال عندها. وكان الانطلاق ليلًا حتى لا تتربّص بهم أعين الوشاة.

كانت الحكاية سلسة في البداية، اعتمدت فيها الكاتبة رؤية من فوق، ولغة شديدة التركيز، خالية من التشويق، لكنها مفعمة بالوجع، مباشرة وشاعرية. وصلت أزمة الدراما إلى ذروتها بوصولهم إلى ليبيا، النقطة الفارقة بين الجحيم والفردوس، بين الموت والنجاة، وبين الحلم واليقظة. إنها النقطة التي يتكوّن فيها رحم الذاكرة، وتعوي فيها الأقدار، حيث يُكتب للناجين منها عناوينُ الحياة على جباههم.

هنا حطّت نعيمة الرحال، وكان الحظ بعيدًا عنها كل البعد؛ إذ رسمت لها الأقدار مسارًا مغايرًا تمامًا لما انتظرته أو توقعته: مسارًا من دمٍ وعذاب. ارتأت الكاتبة أن تعبّر عنه بلغة ساخطة ومنحازة، بكلمات رنانة تطفح بالدم والوجع، وكأنها لا تمنح السرد مهلة ليجد طريقه إلى القارئ، بل تضعه مباشرة أمام فظاعة ما حدث وما يحدث، وتجعله أمام أعين الفظاعة الإنسانية، وكأنها تسائل الإنسانية من خلال ما نثرته من حكايا موجعة مدماة.

صوّرت تفاصيل التعذيب الذي تعرّضت له نعيمة وصديقاتها بكل أشكاله وصوره، في كلمات مقتضبة وهادفة، وقاسية أحيانًا. كل كلمة تحمل في طياتها حكاية لم تُروَ، وقصة لم تنتهِ، وحلمًا انطفأ قبل أن يولد.

تلك كانت قصة نعيمة. اختار لها القدر هذا المسار الصعب؛ حملت في أحشائها بذرة مُعذِّبها، وشاءت الأقدار أن تنجو وتتابع مسارًا هجرويًا ثانيًا نحو إيطاليا – الحلم. لكنها لم تنعم بأمانها، ولم تعانق ضفائر سحرها، ولم ترو عطشها بنعيمها. وصلت إلى إيطاليا وخرائط العذاب الموشومة على جسدها تنخر رحمها، لتكون الشهيدة والشاهدة على كل من اختار ذلك الدرب.

وصلت نعيمة إلى ديار حلمها، ولم يسعفها القدر لتروي قصة حبها لوطن كانت تراهن على حضنه؛ فاحتضن هو جثتها الصامتة ليكون عنوانًا للعبث الإنساني ولاعدالة العالم.

"أردتُ فقط أن أكون سعيدة" بوحٌ إنساني، وقصة تفتح أعيننا على موضوع يستحق التمحيص والمساءلة والبحث :موضوع الهجرة الوافدة، وأسبابها، وحيثيات المسار الهجروي، وتداعيات الوصول إلى البلد المستقبل.
كل هجرة تحمل في طياتها مآسي إنسانية، ودربًا مدميًا وشائكًا لا يعرف تفاصيله إلا من لسعته أشواك المسير.

زينب سعيد